مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 11 عدد: 1 السنة: 2022
ص: 623 - 637 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الكتابة المضادة وأنسنة العلاقة بين الأنا والآخر

– قراءة ما بعد كولونيالية في رواية "ابن الشعب العتيق" لأنور بن مالك–

Counter-Writing and Humanization of the Relationship Between the Ego and the Other

- A Post-colonial Reading in the Novel Ibn al-Sha`ab al-Atiq by Anwar Ibn Malik-

[*] ط.د رابح مناجلي[1] / Rabeh Menadjeli[1]
أ.د مليكة بن بوزة[2] / Malika Benbouza[2]
مخبر الترجمة والمصطلح.
جامعة الجزائر02- أبو القاسم سعد الله /الجزائر
University Abou El Kacem *Saad Allah (Algiers2)*
rabeh.menadjeli@univ-alger2.dz[1] / malika.benbouza@univ-alger2.dz[2]

تاريخ الإرسال: 2021/06/30	تاريخ القبول: 2021/12/05	تاريخ النشر: 2022/03/02

ملخص البحث

تحاول هذه الدراسة مقاربة الرواية الجزائرية المعاصرة "**ابن الشعب العتيق" لأنور بن مالك**، في ضوء مقولات النظرية ما بعد الكولونيالية، من حيث هي رواية تندرج ضمن ما يعرف **بالمقاومة الثقافية**، أو الردّ بالكتابة؛ في محاولة لربط العلاقة بين السرد الروائي ومختلف القضايا التاريخية، والإنسانية التي يتواشج فيها الواقعي بالمتخيل السردي، انطلاقا من مقولة أساسية **لإدوارد سعيد Edward Said** (1935-2003) مفادها أنّ **الأمم ذاتها سرديات ومرويات**. فقد عالجت هذه الرواية النظرة العنصرية للبيض إزاء الآخر الزنجي(الأسود)، إضافة إلى أنّها تشكل دعوة جادّة للحوار الحضاري/الإنساني بين الذات والآخر.

الكلمات المفتاح: ابن الشعب العتيق، مابعد كولونيالية، الكتابة المضادة، الحوار الحضاري، الأنا والآخر.

Abstract :

This study attempts to approach the contemporary Algerian novel: "The Former Son of the People" of Anouar Ben Malek, in the light of postcolonial theory, as a novel that falls into the so-called cultural resistance or rewriting; In an attempt to connect narration with various historical problems, humanity is actually interspersed with narrative imagery, as mentioned in one of Edward Said's fundamental statements: Nations themselves are narrations. This novel dealt with

[*] رابح مناجلي. rabeh.menadjeli@univ-alger2.dz

the racist vision of whites towards blacks, as well as a serious call for a civilized/humanitarian dialogue between the Self and the Other.
Keywords: the former son of the people, post-colonialism, counter-writing, civilized dialogue, the Ego and the Other.

مقدمة :

يعتبر الخطاب الروائي من أكثر الأجناس الأدبية قدرة على تمثيل الواقع، وتعريته وفضح الزيف المختفي فيه، وإزاحة الستار عن المسكوت عنه، ومناقشة الوقائع الإنسانية، فهو بناء على هذا الطرح ينحو منحى واقعيا من جهة، وتخييليا أدبيا من جهة أخرى، بالنظر إلى وظيفته الأدبية/الجمالية لينفرد هذا الجنس الأدبي بخصوصية تجعله يتربع على عرش الكتابة الإبداعية اليوم، خاصة بالنظر إلى التطور السريع الذي شهدته الرواية العربية، مواكبة لمجمل القضايا التي تمس في جوهرها كينونة الانسان، فجميع القضايا التي تتبناها تدور في فلكه.

ولقد شهدت الرواية الجزائرية عبر مراحل تطورها المختلفة منذ ظهورها عدّة تحولات، فقد واكبت مجمل التغيرات السياسية، والتاريخية، والاجتماعية التي عصفت بالمجتمع الجزائري، لتكون سجلا جامعا للقضايا الكبرى.

بناء على هذا الطرح تحاول هذه الدراسة الموسومة ب: **الكتابة المضادة وأنسنة العلاقة بين الأنا والآخر– قراءة ما بعد كولونيالية في رواية "ابن الشعب العتيق" لأنور بن مالك –** مقاربة هذه الرواية من حيث هي رواية ما بعد كولونيالية، وهو نمط موضوعاتي من الكتابة السردية ظهر في فترة/بعد الاستعمار، ويطرح مجموعة من القضايا تتعلق في مجملها بأسئلة الهوية، والانتماء، وطبيعة العلاقة بين **الأنا والآخر**، وفضح سياسات التمثيل الكولونيالية. هذه الاستراتيجية هي الكتابة المضادة التي ظهرت كنوع من الردّ على المركزيات الاستعمارية.

وعليه، فإن هذه الدراسة تعالج موضوعها استنادا إلى عرض حجة أساسية، تتلخص في أنّ هذه الرواية اشتغلت على عناصر القوة التي جعلتها تتمركز في إطار الردّ بالسرد، من خلال تهشيم نسق التعالي الأوروبي/الأبيض ضد الآخر المستعمَر. كما يحاول هذا البحث تفكيك مضمرات هذا النص اعتمادا على مقولات النظرية ما بعد الكولونيالية، و الإجابة عن اشكالية أساسية تتمثل فيما يلي:

كيف كشف منطق السرد في رواية "ابن الشعب العتيق" عن استراتيجية الردّ بالكتابة؟ وكيف تمت قولبة وتمثيل العلاقة بين الأنا و الآخر في إطار أطروحة الاختلاف؟، وما هي أبعاد هذا التمثيل؟.

1. العنوان: العتبة الأولى للقراءة:

يعتبر العنوان من أهم العتبات التي تساعد على قراءة النص؛ ذلك أنه من المداخل الرئيسة التي تعطي انطباعا أوليا عن فحوى النص الأدبي، وغالبا ما يرتبط متن النص بعنوانه، إلا أنه في أحيان أخرى يكسر أفق انتظار القارئ، فيلفته لدلالة أولية سرعان ما تتبدد بعد قراءة النص، وتهدم الفكرة التي سيطرت على ذهنه.

أما في رواية **ابن الشعب العتيق** فإن عنوان النص يرتبط ارتباطا وثيقا بالمتن، فابن الشعب العتيق يشير إلى شيء ضاربة جذوره في القدم، له أصالة وانتماء عريق، وفي الوقت ذاته ينم التركيب عن محاولة الحفاظ على هذا الشيء، والدفاع عن كينونته. وبعد قراءة المتن يتضح أنّ **ابن الشعب العتيق** هو الشخصية الروائية **تريدارير**، ذلك **الفتى الأسود** آخر ممثل لشعبه– شعب تسمانيا – الذين تمت تصفيتهم، وإبادتهم من طرف البيض العنصريين، ومن هنا نلتقط أول خيط لقراءة الرواية، فشخصية **تريدارير** التي ترمز **لأصالة الانتماء** من جهة، وللهمجية، **والعنصرية** التي يتميز بها **الاستعمار الأوربي** من جهة أخرى هي عبارة عن توظيف قصدي من الكاتب لتمرير فكرة جوهرية مؤداها: محاولة بعث الوجود الذي حاول الكولون طمسه والقضاء عليه **بالإبادة الجماعية**.

فأنور بن مالك* في هذا المقام يردّ على سياسة الاقتلاع من الجذور، وإلغاء وجود المقموعين، والمستضعفين من طرف **الاستعمار**.

تشكل هذه الرواية ملحمة تاريخية يميزها **الصراع الإنساني**، والذاكرة المشتركة بين **الشعوب المضطهدة**، والهروب من أجل البقاء على قيد الحياة، حيث شاءت الأقدار أن يغادر **قادر** الجزائر طوعا، والمعتقل بتهمة محاربة الاحتلال الفرنسي إلى **كاليدونيا الجديدة**، وإلى منفاه الأبدي، أين يجد **ليسلي** الفرنسية المنفية من الألزاس بتهمة المشاركة في الثورة الأهلية تحت شعار مناصري عامية باريس،

*أنور بن مالك: (كاتب وروائي جزائري يكتب باللغة الفرنسية ،ولد عام 1956في الدار البيضاء المغربية لأب جزائري من القبائل الكبرى وأم مغربية. درس في جامعة قسنطينة ثم أكمل تعليمه في جامعة كييف بأوكرانيا حيث تحصل على شهادة الدكتوراه في الرياضيات. من مؤلفاته: ابن الشعب العتيق عام 2000، لن تموت أبدا غدا عام 2011، ابن الشيوعي عام 2015.

وهكذا يكون عليهما أن يخوضا غمار رحلة قاسية حتمتها الظروف من جهة والاختيار من جهة ثانية، رحلة تراوحت بين فكرتين رئيستين ألا وهما: الوجود (حياة الإنسان) والعدم (الموت).

يهرب البطلان من الأسر، وينتقلان بحرا إلى أستراليا ليلتقيا بابن **الشعب العتيق**، ويعيش الثلاثة مغامرة الأهوال، والصعاب، ويتقبلون المصير الذي جمعهم، في ظروف يميزها **التعايش، وتقبّل الاختلاف**، وهذا ما يدل عليه حدث زواج قادر وليسلي رغم **تباين الانتماء، والاختلاف العرقي، والديني**، فينقذان **تريدارير** الذي اضطهِدَ – والسكان الأصليين – من طرف الرجل الأبيض ، فقط لكونهم **سود البشرة**، وهذا ما يعطي إشارة أخرى للتأويل، وهي الردّ على العنصرية، والتهميش، والعقلية الانتقائية التي تميز الفرد الأوروبي تجاه كل ما هو ليس أوروبيا، وهذه النظرة الاستعلائية هي الحلقة الأولى التي انطلقت منها باقي حلقات الرواية، حيث يؤدي النسق التطوري للأحداث إلى تعالق، وتواشج انساني بين الشخوص، على نحو يستوعب فيه كل واحد ضرورة احترام وتقبل الآخر، في إطار الحوار المثمر والجاد، فنقاط الاختلاف لا تهم، وإنما ما يهم هو الانسانية، التي تستوعب جميع الشرائح.

2/الرّد بالسرد في سياق ما بعد الكولونيالية:

يعتبر تيار **ما بعد الكولونيالية** من أهم التيارات التي انبثقت عن فترة **ما بعد الحداثة**، كما أنه شق مهم من **الدراسات الثقافية**، يعنى **بآثار الاستعمار** على **الشعوب المستعمرَة**، ويفضح الزيف الإمبريالي، والنرجسية الأوروبية المتعالية. ويعرّف الخطاب ما بعد الكولونيالي على أنه: "منهج، وطريقة في التفكير في القضايا المركزية التي تشغل الثقافات التي تعرضت إلى الاستعمار، مثل اللغة، والهوية، والتاريخ، والذاكرة"[1]، فقد أقر **ادوارد سعيد** بأن الخطاب الغربي حاول أن يظهر : " أنّ الثقافة الغربية اكتسبت المزيد من القوة ووضوح الهوية، بوضع نفسها موضع التضاد مع الشرق، باعتباره ذاتا بديلة"[2].

وقد لعب السّرد دورا هاما في **خطاب ما بعد الكولونيالية**، حيث ظهر ما يعرف **بالرواية ما بعد الكولونيالية**، وهو نمط من الكتابة يعرّي، ويفضح **جرائم الاستعمار** النفسية، والجسدية، والثقافية على المستعمرات، ويستثمر **الكتابة للرّد** على التهميش القصدي الذي انتهجه **المستعمِر** في مستعمراته، وهو ما اصطلح عليه **ادوارد سعيد بالمقاومة الثقافية**، حيث قام في كتابه **الثقافة والامبريالية** بتفكيك الأنساق الكولونيالية الكبرى للرواية الأوروبية الامبريالية/الكولونيالية التي خدمت مساعي الاستعمار، وتوسعاته، وهذا ما أدى إلى ظهور نمط آخر من الكتابة يثور على هذا التوجه الاستعماري، ويحاول ردّ الاعتبار للأصلاني الصامت الذي كان مقموعا ردحا من الزمن، اصطلح عليه الكتابة المضادة/النقيضة،

التي نعني بها "تفكك الصور النمطية المتحيزة ايديولوجيا للمركزية الغربية، منطلقة من الوعي بأهمية امتلاك سلطة الكلمة و الصوت في تمثيل الذات"[3] ، في محاولة جادة لتهشيم المركزية الاستعمارية/الأوروبية التي لم تدخر جهدا في **إقصاء المستعمَرين**، وتكميم أفواههم. زيادة على مسخ ثقافاتهم ووجودهم.

3/الكتابة المضادة وديكولونيالية الميثولوجيا البيضاء:

تتجلى في **رواية ابن الشعب العتيق** استراتيجية الرد من خلال فضح الانتقائية الانسانية، والنظرة **الاستعلائية** التي يتميز بها الأوروبي، من خلال **الحقد الامبريالي** الخفي الذي يضمره ديناليكتيك ثنائية **الأبيض/الأسود**، فقد انتهج **المستعمِر** سياسة الاقصاء تجاه **السود**، و هذا ما دفع بحركة **الزنوجة La négritude** أنْ تثور ضد هذا **التمييز العنصري** الجائر الذي يفضي إلى استعباد السود، وتسييد **البيض** –جدلية السيد/العبد–، ويتضح ذلك في الرواية من خلال **الإبادة الجماعية** الكاملة التي قام بها الصيادون من أجل القضاء على السكان الأصليين لجزيرة **تسمانيا**، وتصفيتها منهم لكونهم ينتمون إلى **العرق الأسود**.

تكشف رواية **ابن الشعب العتيق** عن نسق الاستحقار، والشعور بالدونية جرّاء الممارسات الاستعمارية ضد السكان الأصليين، ذلك أنه حسب أطروحة **فرانز فانون Frantz Fanon (1925–1961)**لا يمكن استعباد أناس دون جعلهم يشعرون بالدونية، وأنّ **العنصرية** هي الشكل الانفعالي والعاطفي وأحيانا الفكري، الذي تتبدى فيه عملية جعل الآخرين يشعرون بالضعف، حيث أن "غرضه الرئيسي يبقى متمثلا بمقاضاة أوروبا لاقترافها جريمة تمزيق البشرية إلى سلسلة هرمية من الأعراق "[4]، وقد كان هذا هو حال **السود** في هذه الرواية، فقد تم **اضطهادهم بوحشية** تامة. ونلمس ذلك من خلال مجموعة من الصفات الواردة في صفحات متفرقة من الرواية، حيث نلمس فيها صفات الاحتقار والدونية التي كان يوصف بها السكان الأصليون: **"هذا زنجي، الغلام القذر، رعاع الأرذال، الصغير الشديد السمرة، ليسوا من البشر، التوالد والتكاثر مثل القمل، ابن أكلة لحوم البشر، إنسان قذر، الأرانب السوداء، الزنوج الفاشلين، آكلة التراب، ابن الأوباش، أبناء الآبوس، إنهم حيوانات، السود الملاعين** ...الخ

و تمثل شخصية **أوهارا** الانسان **الأوروبي الأبيض** الذي يكنّ **البغض، والعداء للأسود**، كما يمثل تلك **الصورة النمطية** المقدمة عن **السود** من قبل البيض، فهو ينفر منهم، ويرفض وجودهم رفضا قاطعا، لأنه لا يعتبرهم أصلا من الكائنات البشرية التي يحق لها الوجود. وها هو يقول: "إنّ تصفية

الآبوس، ذاك هو عملي، وهو منتشر في هذه البلاد، فأنا أتقاضى أجرا جيّدا مقابله (...) إذ يجب علينا أن نقوم بتنظيف أستراليا من ما علق بها من طفيليات (...) وعندما أقوم بتصفية عائلة من الزنوج أكون، صدّقيني يا حلوتي طبيعيا للغاية ..." [5]، حيث يكشف لنا هذا القول السعي المستمر في تشويه الإنسان الأسود، وتقديمه بأسوأ صورة.

ومن جهة أخرى تكشف لنا معاناة **عائلة تريدارير**، الوجه البشع **للاستعمار** البريطاني الذي استولى على جزيرة **تسمانيا**، التي تمثل الموطن **الأصلي للزنوج**، حيث ارتكب البريطانيون شتى أنواع الإجرام، من نهب وإبادة في حق السكان، والأهالي الذين كانوا بمثابة صيد وفير لهم. وفي هذا الصدد يقول **القبطان بروس**: "هذه السلالة من الأرانب السوداء اللون تقيم في الجزيرة!، إنهم متخلفون جدّا عن سكان القارة (...) وعندما وصل البيض عقدوا العزم على تطهير الجزيرة (...) أنا ساهمت في عمليات الإبادة الجماعية (...) كان الصيف موسما نقضيه في صيد الأسماك، فيما نمضي الشتاء باصطياد الزنوج (...) لقد كان زمنا هنيئا"[6]. إن هذا التلذذ السوداوي، والرغبة في سفك الدماء أكثر، لا يمكن التخلص منها بسهولة، فهو يعني أنّ **الاستعمار** ينزع إنسانية الإنسان، ويؤجج **الصراع الحضاري** على حساب الشعوب الضعيفة، وأنّ **المشروع الاستدماري** إنّما تأسس على الاحتقار، وتغيير الآخرين.

وفي نفس السياق يقول **البحّار**: "لم يكن عليه أن يولد إذن، ذاك الزنجي!، أبناء جلدته ليسوا من البشر، إنهم حيوانات ليس إلا، فلو تركوا ليعيشوا لكانوا أفسدوا سلالتنا، وما قمنا به لم يكن إلا دفاعا عن أنفسنا (...) أولئك السود من الخنازير؟"[7]، يبرز هذا الملفوظ نظرة الاستعماري، وحقده الدفين للزنجي بوصفه **مستعمَرا**، بشاعة الفكر من جهة، والرغبة في **محق السود**، وفنائهم من جهة ثانية، وهذا ما يتضح بقوة عبر احتقار الإنسان الأبيض للزّنوج، ونفوره منهم، لا لشيء سوى لاختلاف عرقهم عنه، وانحدارهم من سلالة مختلفة، "فالبيض يحتقرون السود، ويستغلونهم في حقولهم بصورة أحسن بقليل من البغال، وأحيانا أخرى كالكلاب"[8] ، ويرفضون رفضا مطلقا التعامل معهم.

إن أكثر ما يمكن **للمستعمِر** أن يلحقه من أذى **بالمستعمَر** هو خلع صفة الإنسانية عنه. وهذا ما يبينه قول **رجل الشرطة لليسلي**: "إنّك تدخلين الفوضى إلى هذه الديار يا سيدتي، فالأسود قرد، ولا ينبغي عليه أن يشابه الأبيض وإلاّ. ما من شيء يبقى على حاله أو في مكانه !"[9] ، أليس الشرطي غريبا عنها–الديار–؟ أليس **تريدارير** الزنجي الوحيد الذي يستطيع أن يعلن انتمائه لهذه الديار؟!، ولكن الموازين تبدلت، والحقائق طمست، حتى أصبح الصبي غريبا في موطنه!. وإذا ما وجدت مشكلة أو سرقة، فإن

سهام الاتهام تتوجه صوب الأهالي، لذا تتوجب الضرورة الحماية منه لأنه خطِر، ومذنب، ويجب معاقبته، وأنّ كل واحد من **الزنوج** هو سارق محتمل، ولابد من معاملته على هذا الأساس. وعندما كان يختفي أحد الحيوانات أو تحدث خسارة أو سرقة ما في المزرعة التي يكونون مسؤولين عنها، كانوا يجلدون بلا رحمة، ويتم تسميمهم، فاستعملت رؤوسهم للعب كرة القدم، وسحق آخرون بحصان حتى الموت، من دون أن تتخذ الدولة إجراءات عقابية جدية قط[10].

لقد تجرّد **البيض** من قيمهم البشرية، والمبادئ الأخلاقية، وحتى المشاعر، والأحاسيس الإنسانية إذا ما تعلق الأمر **بالعرق الأسود**، الذي ينفرون منه بأي شكل من الأشكال، ولهذا نجدهم يسعون إلى **إبادة مجتمعات السود**، وإزاحتهم من الوجود عن طريق عملية التطهير العرقي، لأنهم يرون أنّ لهم الأحقية المطلقة في ذلك، فلقد حرموا إنسان هذه القارة من ثرواته، وحتى صوته، ومنعوه من أن يحظى حياة هانئة ينقل من خلالها ثقافته، ومعتقداته، وموروثاته لخلفه وأحفاده. وكان **الاستعمار** يعمل مشروعه تحت شعار الإيمان بمبدأ **النقاء النازي** (الوحدانية) على حدّ تعبير **إدوارد سعيد**، والذي يرى بأن الغريب دخيل ينبغي بتره، ودحضه، ويراه تلويثا وتشويها لكل شيء نقي، وسليم، لذا ينبغي غسله، والاغتسال منه، ومن الطبيعي أن يبحث **المستعمِرون** عن استراتيجية تحميهم، وعن إطار فكري ملائم لوجودهم، وعن فلسفة تحول العالم الذي يتعرضون فيه للخطر إلى عالم يأمنون على أنفسهم منه، ولكن هذا لا يحدث إلا على حساب **الأصلاني الصامت** الذي لا كلمة له، والذي مثله الغربي نيابة عنه. حيث "أنّ عملية تشكيل جماعة في الأرض الجديدة، كان معناه بالضرورة إنهاء تشكيل أو إعادة تشكيل الجماعات التي تواجدت هناك من قبل، وشمل مجالا واسعا من الممارسات من ضمنها التجارة، والسلب، والمفاوضات، والحرب، والإبادة الجماعية، والاسترقاق، والثورات"[11]. ويتجلى لنا من خلال هذا القول أنّ الظاهرة الكولونيالية صنعت لها عالما مليئا بالأداتية، والظلم التاريخي، والسياسي، والفكري، على حساب الشعوب التي طالها التحيز، والتهميش ردحا من الزمن.

لقد عرضت الرواية وبشكل لا يمكن تجاهله تلك الصورة النمطية، والأفكار المظللة، والتشويه لكل ما هو **عربي مسلم**، فاعتبر **الدين الإسلامي** دين التخلف، والرجعية، والإقصاء من جهة ودين العنف، والقتل، واللا تسامح من جهة ثانية، ولقد تفنن **المستدمِر** في استهداف كل ما هو عربي مسلم، واتخاذه لمواقف معادية وسلبية، مؤمنا، ومحرضا على **صراع الحضارات وصدامها**، و هي نظرة تملأها الكراهية، والعنصرية. ويتبين لنا ذلك من خلال قول **القبطان لقادر**: "إنّ وعدك هذا لا يساوي أكثر من هذه

البصقة، لست إلاّ عربيا، بل قل نصف زنجي ..."[12]، ولم يبلغ التوقف إلى هذا الحد، بل وصل إلى التعدي على إله المسلمين، فلم يسلم من سخرية المسيحيين، إذ يجيب **زميل الحارس**: "هذا طبيعي، فإلههم يخشى داء المفاصل، وهو يفضل الصحاري القديمة الكثيرة الجفاف على ماء المحيطات" (مالك، 2007، ص96)، بل إنّ **المسيحيين** لا يرغبون في أن تربطهم **بالمسلمين** أية صلة، لأنهم مبعث على التقزز، والتخلف، والرذيلة. وها هو ذا **قبطان السفينة** يتهجم على كل من **قادر وليسلي** بوابل من الشتائم، ناعتا إيّاهما "باللصوص، وأوباش محمديين، وحماة الرذيلة"[13]. وكلها صفات مشحونة بالصور النمطية التي صنعتها الإمبريالية الغربية.

من زاوية أخرى، تطرقت رواية **ابن الشعب العتيق** إلى معاناة **نساء المستعمَرات**، والقمع المزدوج الذي سلّط عليهن، فمن جهة قمع **الاستعمار** للبلاد، و من جهة أخرى قمع **المستعمِر** لأنوثتهن. ويتجلى ذلك من خلال شخصية **ليسلي** التي كانت تتعرض للاغتصاب بشكل متكرر من طرف **قبطان السفينة**، والقمع في هذا المقام ليس قمعا رمزيا، إنّما هو قمع جسدي، يحاول **المستعمِر** من خلاله إبراز فحولته/سلطته، كما يبرزها جنود الكولون في ساحات الحرب.

4/تهشيم نسق القطيعة مع الآخر وأنسنة العلاقات:

تعدّ هذه الرواية نضالا من أجل **التواصل مع الآخر**، ودعوة صريحة من أجل تفعيله بين الإنسان والثقافات والعقائد، ولا يكون هذا التواصل إلاّ عن طريق الشخصيات التي تعدّ المكون الروائي، والعنصر الهام في اللعبة السردية التي من شأنها أن تصنع الحدث الروائي وتشكله، فلا يمكن الاستغناء عنها، ولا يمكن تجاوزها مهما كان الدور مقزما لهذه الشخصيات المتعددة الأدوار، والأحداث، أو متعددة الأعراق والأصول. والتي سيجمعها القهر، والمعاناة، وشبح الموت الذي يلاحقها من طرف **الرجل الأبيض**، هذه الشخصيات التي وجب عليها **التأقلم فيما بينها، والتعايش** جنبا إلى جنب كعائلة واحدة في هذا العمل الروائي.

تعبّر شخصية **قادر** في هذا العمل الإبداعي عن الإنسان العادي **الناشد للإنسانية**، البسيط المؤمن بالسماحة، الذي لا يميز بين البشر المختلفين حسب اللون، والدين، واللغة... همّه معالجة القضايا الإنسانية، وشعاره الحذو نحو الخير، والجمال، حيث كان محبا للسلام، ميّالا للوقوف إلى جانب الحق، ومواجهها صعاب الحياة، فلم يستسلم لقساوة الواقع الذي يعيشه، سواء في بسكرة أو تسمانيا – السجن– أو في الرحلة الأخيرة في أستراليا، فهو المقاوم الذي لا يأبه أمام عقبات الحياة، ومطباتها، فلم

يخضع لسلطة الرجل الأبيض، هذا الأخير الذي نهب الأرض، واغتصبها، وطمس صوت شعوب بأكملها، ليبيدها في آخر المطاف من على وجه المعمورة، فلم يبق أحد ليخبر عنها – تسمانيا–، **فقادر** هو الرجل الذي يرفض الخضوع، والثبات، والاستكانة **للمستعمِر** الفرنسي في أرض الجزائر أو في منفاه، بل يدعو إلى التصدي للقهر، والظلم الاستعماري تجاه **العرق الأسود**. ويتجلى ذلك من خلال مؤازرته **لتريداريير**، فهو يعامله كغيره من البشر دون أن يسيء إليه، ويوليه عناية خاصة، ويرى أنه الأقوى ذو **العرق النقي الصافي**، والأحق بالعيش على هذه الأرض – أرض أجداده –، وكان يكنّ له ودا، وحبا، ويشعر بروح المسؤولية في الدفاع عنه، حيث يقول على لسان **قادر**:" ماذا سنفعل بك يا صغيري؟، فلبعضهم تبدو باهض الثمن، وللبعض الآخر لا تساوي قشارة، لا هؤلاء، ولا أولئك يريدون لك الخير، هذا أقل ما يمكن قوله، وأنا؟ أنا خائف من مساعدتك، قد أكون قريب الأمير عبد القادر، ولكن هذا لا يجنبني الإحساس بالخوف يعتصر أحشائي، لا شك أنك أنت أيضا تشعر بالخوف ..." [14] يترجم هذا القول سماحة **قادر**، فهو يسعى إلى تحقيق رغبته في أن يعيش وشركاء دربه بأمان، وسلام، بالرغم من مخاوفه، ومآسيه، متحديا بذلك **الرجل الأبيض** وثقافته القائمة على أمور واهية، طامحا بذلك في التغيير نحو الأفضل، والوقوف مع القضايا العادلة.

لطالما اعتبر **تريداريير** مثالا للمنبوذ، والمرفوض من طرف **البيض** باستثناء **قادر وليسلي**، فكانا يبادلانه كل مشاعر الحب، والود. حيث يقول **قادر** في حديثه عن **تريداريير**: "لي، قاد مينا لويتيا نينا (...) "لي، قاد إنني أحبكما"، آه، أجل كم من المرات سمعنا هذه الجملة ! (....) كان يدخل خلسة إلى غرفتنا ويجثو على ركبتيه، ويروح يكرر كأغنية أو صلاة: مينا لويتيا نينا ... مينا لويتيا نينا ..."[15] ، إلى أن نجيز له بمشاركتنا فراشنا"[16]، لقد كان **تريداريير** يعي جيّدا أنّه محتقر، ومرفوض من قبل البيض، كما أنه كان يدرك الموقف الإيجابي **لقادر وليسلي** تجاهه ومؤازرتهما له، حيث نجد طبيعة العلاقة بينهم ميزها الامتنان، والاعتراف بالفضل لما حوته من مشاعر إنسانية، تمثلت في الحب، واللطافة، والتضحية من أجل الدّفاع عنه، هذه العلاقة التي تبتعد كل البعد عن ازدراء **البيض للأسود**، والتقليل من شأنه، إذ نجد **قادر** في البداية يشعر بالألم والأسى تجاه **تريداريير**، بسبب المعاملة الشنيعة، والسيئة التي تلقاها من قبل **البيض** بعد أن منعوه الحق في الحياة، فعامله معاملة الأب لابنه، واعتبره علة وجوده. حيث يقول في هذا الصدد: " لعل ابن الشعب العتيق الذي يخب بجواده قربي، هو أجمل ما حصل لي في حياتي، ولكنه كذلك الأكثر إثارة للحيرة بالتأكيد، فلقد أحببته –ولازلت أحبه– **أكثر مما أحب ابني** أو ربما بقدر ما أحببت –

ولازلت أحب – ليسلي" [17]، لتمتزج في الأخير مشاعر الحب، والخوف معا، حيث أصبح **قادر** كثير الارتياب، والخوف عليه من الوقوع في أيادي **البيض** الذين لا يفهمون وجع السود، بل لا يتورعون عن ارتكاب الجرائم في حقهم لإرضاء نزواتهم.

لقد أدرك **قادر** علتي وجوده– **تريدارير وليسلي**–، فيقرر في الأخير أن يشاركهما حياته. فها هو يخاطب زوجته: "أتدرين يا **ليسلى** ... إنّ **تريد** يضحك! للمرة الأولى ... أنت وأنا لا نساوي أكثر من قشارة ... والأمر أسوأ بالنسبة إلي. تريد ... لعلنا ... لا نستطيع الارتقاء إلى الكمال، إلا ثلاثتنا معا، فواحدنا يكمل الآخرين، ويكتمل بهما ؟، ولكن هذا يعني مزيدا من الشقاء، وإنْ حالفنا الحظ، النذر القليل من السعادة!، فهل سنقوى على دوام احتمال ما تخبئه لنا الأقدار؟" [18] ، كان القرار ناجما عن قلق وجودي على مصير كل منهم، وهذا التنازل هو بمثابة التضحية في سبيل **الحق، ومناشدته، وإيمانه بالإنسان** على **اختلاف اللون، والمعتقد واللغة**، وهذا ليس غريبا على **قادر**، فلقد أظهر هذه المشاعر في العلاقة الحِبِيَّة، ومشاعر الود التي كان يكنها، ويبادلها **لآل بيكار الفرنسيين** في دمشق، رغم أن شعبهم كان سببا في استعمار الجزائر، إلا أن هذا لم يمنعه من الاحتكاك بهم، وتعلّم لغتهم، فراح يلوك بإتقان اللسان الفرنسي – لغة المستوطنين لأرض الجزائر – ويكشف من ثَمَّ عالما آخر مختلفا عن العالم الذي عاش فيه، حيث جمعت هاتين العائلتين آلام الفرقة، والنفي، والاضطرار المحتم في الابتعاد عن الأرض الأم – **فرنسا** بالنسبة **لآل بيكار، والجزائر** بالنسبة لعائلة **قادر** – فتشكلت بذلك كل معاني الإنسانية، والتعايش والحب؟ لكن بعدما تجلى المضمور، والخفي أصبح التذكر – الخيانة – يقبض الصدر، ويزيده ألما، وأسى إلى آلامه، وأوجاعه التي شاركه فيها كل من **تريدارير وليسلى**.

وفي النهاية تتطور العلاقة وتستسلم أمام الحب، ثم تكلل بالزواج ، فوجعهما واحد، وعدوهما واحد، وهدفهما واحد. حيث يقول **قادر** في هذا الصدد: " أدرك أنّ ما من شيء في هذه الدنيا يعني لي أكثر من ذلك الجسد الممدد على السرير في عمق الغرفة، جسد زوجتي المنهك، إنني عطش تواق إلى الحياة، كم أنا عطش إلى الحياة، لها ولي" [19] ، لقد عانى **قادر** جرحا داميا يخزه باستمرار، ويشعره بالضياع، والأسى لمرض شريكة دربه، وبالخوف على من شاركته المصائب، والمحن، ووقفت جنبه في مواجهة هذا الكم الهائل من الألم، لتستسلم في الأخير إلى الموت، وها هو ذا **قادر** يستشيط غضبا ضد **جوزيف**، وزوجته **مارغريت** اللذين أذعنا لموتها. فيقول: "ولكنكم كنتم تحبونها!، هذا ما أوشك على الاعتراض به وسط غداء البارحة، عندما انفجرت **مارغريت** ضاحكة لحكاية الثيران التي سردها أحدهم، وحذا جوزيف

حذوها، فتركت طاولة الطعام على عجل خشية أن أستسلم لحزني فأروح أجهش بالبكاء "[20] لقد حزَّ في نفسه هذا التجاهل، والنسيان السريع لمحبوبته، والذي أبداه الابن الحقيقي لأمه التي عانت الويلات من أجل أن تعيش. على غرار **الابن الأسود** الذي زاده ألم الهجران، والفقدان، حزنا، وهما.

وتتجلى مشاعر الإنسانية أيضا في شخصية **ماتيلد** صديقة **ليسلي** التي كانت قد سجنت معها في سجن **لاروشال بكاليدونا الجديدة** نتيجة لمناصرتها العامية الباريسية، حيث تظهر صورة هذه الشخصية في أنّها وقفت وقفة إيجابية تجاه الآخر بالنسبة لها كامرأة تنتمي إلى **البيض**، وكانت كلمتها تقف مع القضايا العادلة حتى وإن كان من تدافع عنه **أسود البشرة** أو من غير عرقها، ودينها. فها هي تقرر مدّ يد العون **لقادر** السجين الفار دون سابق إنذار، مبررة ذلك بأنّه مقاتل من أجل حرية بلاده فتقول :"حتى وإن كان محمديّا متزمتّا"[21]، تقرر مساعدته- لأنّها تدرك أنه لو وقع في يد الفرنساويين حتما سيكون في عداد الأموات – عن طريق إيوائها له، هذه الشخصية **المناصرة للقضايا العادلة** بإمكانها أن تعرض نفسها وحياتها للخطر في سبيل نصرة هرّ، إلى الحدّ الذي وافقت فيه على ثورة **الزنوج** في الجزيرة، وتبرر ذلك بقولها: "لقد استولينا على أراضيهم ومناطق الصيد فيها وأهديناهم بالمقابل حقول الحصى والسُّخرية المستدامة، واغتصاب نسائهم ونبش قبورهم، ولكي نتمكن من الإجهاز عليهم وإبادتهم فلا يبقى منهم من يخبر عنهم دون أن يصيبنا من الأمر تأنيب الضمير ..."[22]. يجلي لنا هذا القول النزعة الإنسانية **لماتيلد** التي تجاوزت كل حدود الأديان، واللغات، والأعراف، لتصل إلى الإنسان المختلف عنها في كل أنحاء العالم، وهي دعوة منها إلى تقديس الحق والخير والجمال، وإيمانها بالسلام والحرية ضد الهيمنة والعنف.

لقد شهدت **ماتيلد** على وحشية بني جنسها في تعاملهم مع السكان الأصليين الذين عاثوا في أستراليا فسادا، وتقتيلا، وإبادة، وظلما في وجه أبرياء ذنبهم الوحيد أنّهم جاءوا مغايرين **للّون الأبيض**، وبهذا تكون صورة **ماتيلد** صورة المرأة الإنسانية المناضلة من أجل إعلاء كلمة الحق، حتى لو عرّضها ذلك فقدانها للحياة، فهي تدعو إلى ضرورة التحلي بالقوة الناعمة التي تؤمن بجدوى الحوار، واحترام خصوصية الآخر. حيث يقول **تودوروف** في هذا الصدد: "إنّ الخوف من البرابرة، شعور يوشك أن يجعلنا نحن بأنفسنا برابرة"[23]، فالخوف من **المستعمَر** أصبح يقض مضجع **الغربيين**، لهذا دفعهم خطاب الكونية الزائف إلى اعتبار كل من يقع خارج تخومهم بربريا، ومتوحشا، وبالتالي يعطي لنفسه شرعية ممارسة العنف عليه، حيث يسعى الغرب على نحو هستيري، وبطرق غير مشروعة، إلى إسقاط منظوره الحضاري

الاستعلائي على المبرط(الفضاء الامبراطوري غير الأوروبي الهائل، على حد تعبير إدوارد سعيد)، وأنّ كل غريب عنه يعتبر دخيلا، وتلويثا **للنقاء النازي**، لذا يجب بتره والاغتسال منه، فيقصي بذلك الطرف الآخر تماما، ويقضي على خصوصيته.

وفي الأخير لابد أن نقف عند صورة **ليسلي** الإنسانية في دفاعها عن **تريدارير**، وحمايته، وإغداقها عليه بالعطف، والحنان، والحب، نتيجة لما تكبده هذا الصبي من شقاء، ويُتْمٍ، خاصة تلك الطريقة الوحشية التي عومل بها والديه. يقول **الراوي**: " رأت ليسلي أيضا ما حواه الصندوق، فسالت الدموع على وجهها غزيرة، خارت قواها واختلج جنباها بتشنجات متقطعة، لم تعد تقوى على التنفس وبصعوبة نطقت ببضع كلمات ... كامي ... إنه يشبه ... "[24]، لقد ذكرها المشهد بابنة أخيها التي لم يكترث بنو جنسها بتوسلاتها من أجل إنقاذها، رغم أنّها كانت طفلة رضيعة، مغلوب على أمرها.

كانت **ليسلي** تقف دائما في وجه من يريد أن يتعامل مع **تريدارير** بعنجهية، ويقلل من شأنه، إنّها ترى فيه ابنة أخيها. وها هي تردُّ على صاحب النزل الذي قرر أن ينام **تريدارير** في الإسطبل- لأنه وبكل وضاعة لا يعتبره إنسانا-: "أوليس الزنجي هو الوحيد الذي باستطاعته أن يعلن بالفم الملآن انتماءه إلى هذه البلاد التي هي موطنه "[25]، فبعد أن قرر **الرجل الأبيض** اغتصاب أرض **الزنوج**، ها هو ذا يغتصب هويتهم، ويطمس صفة الأنسنة عنهم، وها هي ذي مرة أخرى تأخذها الحميَّة لتتهجم على **قادر** في بداية الرحلة بعدما قلل من شأن **تريدارير**: " لاتُقْرِنه بمأساته ! ... إنه صبي ككل الصبية، لا حدود لمأساته ... كيف ينبغي علينا أن نتصرف مع من يعيش نهاية العالم "[26]. لقد حتمت هذه الأوضاع الأليمة على كل من: **قادر**، **وليسلي**، **وتريدارير** أن يبحثوا عن سبيل الخلاص، وتدارك عبثية مصائرهم، بالبحث عن كل ما من شأنه أن يضمن التعايش رغم أنهم جبلوا على الاختلاف الذي يعتبر رحمة وضرورة لا يمكن تناسيها.

تتحول العلاقة بين **ليسلي**، **وقادر** من قطيعة وعداوة إلى ألفة وتعايش، لقد أدّى هذا الالتحام الذي رسخته المحن إلى تحالف الضحايا، والتي دخلت في صراع عسير بدأ بمحاربة الظلم، ومرّ بالاعتقال، والنفي، والهرب، والتشرد، فدفعت الشخوص أثمانا باهضة في سبيل نيل الحرية المنشودة، وكلل ذلك بالحب، والزواج، والتعايش، رغم الاختلاف العرقي، والديني لكل من **قادر الجزائري المسلم**، **وليسلي الفرنسية الكاثوليكية**، **وتريدارير التسماني الميثاوي**، وانتهت هذه الرحلة المأساوية بالحتمية القدرية المسلطة على الجميع ألا وهي الموت.

الخاتمة:

بعد قراءة رواية **ابن الشعب العتيق** في إطار منهجية تحليل المحتوى، وفي ضوء **النظرية ما بعد الكولونيالية** التي كانت الخلفية النظرية التي اتكأت عليها هذه الدراسة التطبيقية، خلص البحث إلى النتائج التالية:

– تصنف **رواية ابن الشعب العتيق** ضمن **الروايات الجزائرية ما بعد الكولونيالية**، التي تميزت بمعارضتها **لنظام الكولون** الذي يقمع الحريات الفردية، و يضطهد كيان مستعمراته، عن طريق التصنيف اللاإنساني الذي يقرّ بأفضلية النوع البشري الأوروبي على غيره.

– تعتبر **رواية ابن الشعب العتيق** سردية مضادة على كل أشكال القمع، وصور التنكيل التي مورست على **شعوب المستعمَرات**، ويتجلى ذلك من خلال أنماط التعذيب النفسي/الجسدي الذي طال شخوص الرواية في غير موطنهم.

– تفكك هذه الرواية أكذوبة/أسطورة الميثولوجيا البيضاء، وهي سردية كبرى جاءت **الدراسات ما بعد الكولونيالية** لتهشيمها، وقد كان السرد وسيلة ناجعة فاعلة في هذا التوجه، من أجل ردّ الاعتبار للهوامش التي تم إقصاؤها، واستلاب أحقيتها في الدفاع عن نفسها فترات طويلة من ليل الامبريالية، والاستعمار الأوروبيين.

– رواية **ابن الشعب العتيق** دعوة لخلق جسور للتحاور الجاد بين الثقافات، والأجناس الانسانية، واحترام الاختلاف، وتقبله... فليس المهم أن نتشابه كلنا، بل العبرة أن نستوعب فوائد الاختلاف، ومزاياه في تأثيث وتقوية العلاقة بين الأنا والآخر.

– تعبّر هذه الرواية عن فكرة أساسية مفادها أنّ الإنسان لا يمكنه أن يجد نفسه إلا إذا كان حرا، فهو الذي يعطي للحياة معناها، ويصنع ذاته، ويكون صاحب الحضور المركزي في هذا العالم، وهو ما يعني **رفضه للوضع الكولونيالي**، ودحضه لمقولة **التفوق الحضاري** التي تعيد إلى أذهاننا عبء **الرجل الأبيض**، الذي يجاهد لتمدين الآخر، ونشر الحضارة في أقطاره، **ومناشدته للسلم**، وذلك من خلال **بناء جسور الحوار الحضاري بين مختلف الثقافات** عن طرق **تقويض الخطابات** التي من شأنها إشعال فتيل الحرب بين **الغرب والشرق**، وكشف خباياها وتحيزاتها المغرضة، والتي تتعارض مع **الجوهر الإنساني المؤمن بالحوار والتعايش مع الآخر**، بغض النظر **عن الاختلاف العرقي والديني واللغوي**، **فالحضارة تراث إنساني مشترك**.

هوامش:

[1] لونيس بن علي، نشيد بروكوست متون نقدية،دار بوهيما، الجزائر، ط1، (2018)، ص 105.

[2] Said. Edward W: Orientalism: Western Conceptions of The Orient. New Delhi: Penguin Books. 2001.pp: 31-39.

[3] لونيس بن علي، ادوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية،دار ميم للنشروالتوزيع، الجزائر ط1، (2018)، ص 322.

[4] ادوارد سعيد، فرويد و غير الأوروبيين ت: ثائر ديب و آخرون،(2004)، دار الآداب، (بيروت)، ط1، صص 31-32.

[5] أنور بن مالك، ابن الشعب العتيق. ت: رلى ذبيان،(2007)، دار الفارابي سيديا، (الجزائر)، ط1، صص 428-429.

[6] المصدر نفسه، صص 223-224.

[7] المصدر نفسه، ص 225.

[8] Kodjo Attikpoé : La Représentation Du Passé Dans La Littérature Africaine Pour La Jeunesse, Vol 11.n 2, 2008. P 157.

[9] الرواية، ص 320.

[10] مارك فيرو الكتاب الأسود للاستعمار من العبادة إلى التوبة، ت: محمد أحمد صبح،(2009)، شركة قدمس للنشروالتوزيع، بيروت، دط، ، ص 106.

[11] آنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ت: محمد عبد الغني غنوم،(2007)، دار الحوار للنشر والتوزيع، (سوريا)، ط1، ص 18.

[12] الرواية ص 239.

[13] الرواية، ص273.

[14] الرواية، 330.

[15] الرواية، ص330.

[16] الرواية، ص66.

[17] الرواية، ص 469.

[18] الرواية، ص461.

[19] الرواية، ص12.

[20] الرواية، ص467.

[21] الرواية، ص183.

[22] الرواية، ص184.

[23] تزفيتان تودوروف، نحو رؤية جديدة لحوار الحضارات، تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية. ت: محمد الجرطي، (2010) ،منشورات المتوسط، (إيطاليا)، ط1، ص 07.

[24] الرواية، ص 236.

[25] الرواية، ص315.

[26] الرواية، ص 322.